❁ ❁ ❁

تفسير سورة الفيل

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم أنوفهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة. وكانوا قوماً نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان. ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم - يا معشر قريش - على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد، صلوات الله وسلامه عليه، خاتم الأنبياء. وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب، قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود: أن ذا نُوَاس - وكان آخر ملوك حمير، وكان مشركاً - هو الذي قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً، فلم يفلت منهم إلا دَوس ذو ثعلبان، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام - وكان نصرانياً - فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة؛ لكونه أقرب إليهم، فبعث معه أميرين: أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم، في جيش كثيف، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار، واستلبوا الملك من حمير، وهلك ذو نواس غريقاً في البحر. واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران: أرياط وأبرهة، فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا، فقال أحدهما للآخر: إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا، ولكن أبرز إلي وأبرز إليك، فأينا قتل الآخر، استقل بعده بالملك. فأجابه إلى ذلك فتبارزا، وخَلْفَ كل واحد منهما قناة، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف، فشرم أنفه وفمه وشق وجهه، وحمل عَتَوْدَة مولى أبرهة على أرياط فقتله، ورجع أبرهة جريحاً، فداوى جرحة فَبَرأ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن. فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزن ناصيته. فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف، وبجراب فيها من تراب اليمن، وجز ناصيته فأرسلها معه، ويقول في كتابه: ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك. فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه، ورضي عنه، وأقره على عمله. وأرسل أبرهة يقول للنجاشي: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها. فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء، رفيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء. سمتها العرب القُلَّيس؛ لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها. وعزم أبرهة الأشرمُ على أن يصرف حجَّ العرب إليها

كما يُحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً، حتى قصدها بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً. فأحدق فيها وكرّ راجعاً. فلما رأى السدنة ذلك الحدث، رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة، وليخربنه حجراً حجراً. وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً، وكان يوماً فيه هواء شديد فأحرقته، وسقطت إلى الأرض.

فتأهب أبرهة لذلك، وسار في جيش كثيف عَرَمرم؛ لئلا يصده أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله، يقال له: محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك. ويقال: كان معه أيضاً ثمانية أفيال. وقيل: اثنا عشر فيلاً. وقيل غيره، والله أعلم. يعني ليهدم به الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان، وتوضع في عُنُق الفيل، ثم يزجر ليلقي الحائط جملة واحدة. فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة دون البيت. وَرَد من أراده بكيد. فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له «ذو نَفْر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله، وما يريد من هدمه وخرابه. فأجابوه وقاتلوا أبرهة، فهزمهم لما يريده الله، ﷻ، من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر «ذو نُفْر» فاستصحبه معه. ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم، عَرَض له نُفَيل بن حبيب الخَثْعمي في قومه: شهران وناهس، فقاتلوه، فهزمهم أبرهة، وأسر نُفَيل بن حبيب، فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز. فلما اقترب من أرض الطائف، خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم، الذي عندهم، الذي يسمونه اللات. فأكرمهم وبعثوا معه «أبا رِغَال» دليلاً. فلما انتهى أبرهة إلى المُغَمّس ـ وهو قريب من مكة ـ نزل به وأغار جيشه على سَرْح أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذوه. وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب. وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة، وكان يقال له: «الأسود بن مَقْصود» فهجاه بعض العرب ـ فيما ذكره ابن إسحاق ـ وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وأمر أن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجىء لقتالكم إلا أن تَصُدوه عن البيت. فجاء حناطة فَدُل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلي بينه وبينه، فوالله ما عندنا دَفْع عنه. فقال له حناطة: فاذهب معي إليه. فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجله، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال للترجمان: إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زَهِدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني! قال: أنت وذاك. ويقال: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة، والتحصن في رؤوس الجبال، تخوفاً عليهم من معرة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُـمَّ إنَّ الـمـرء يـمـنَـعُ رَحْـلَـه فـامـنـع حِـلالَـك
لا يـغـلـبـنَّ صَـلِـيـبُـهـم ومِـحَـالُـهـم غـدواً مِـحَـالَـك

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حَلْقة الباب، ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال. وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مُقَلَّدة، لعل بعض الجيش ينال منهم شيئاً بغير حق، فينتقم الله منه. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله ـ وكان اسمه محموداً ـ وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال: «أبرك محمود، أو ارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام». ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل. وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى. فضربوا في رأسه بالطَّبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مَرَاقه فبزغوه بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعَدَس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق هذا. ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز،

ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول:

أينَ المَفرُّ؟ والإلهُ الطَّالبْ ... والأشرمُ المغلوبُ غيرُ الغالبْ

قال ابن إسحاق: وقال نُفَيل في ذلك أيضاً:

ألا حُيِّيتِ عَنَّا يا رُدَيْنا ... نَعِمْناكُم مَعَ الإصبَاح عَيْنَا
رُدَيْنَةُ، لو رأيتِ ـ ولا تَرَيْهِ ... لَدَي جَنْبِ المحصَّبِ ـ ما رَأينَا
إذا لَعَذَرْتِني وحَمَدتِ أمري ... وَلَم تأسي عَلى ما فاتَ بَيْنَنَا
حَمِدتُ الله إذ أبصَرتُ طيراً ... وخِفْتُ حجارةً تُلقَى عَلينا
فكُلُّ القوم يَسألُ عَن نُفَيلٍ ... كأنَّ عليَّ للحُبْشَانِ دَيْنَا!

وذكر الواقدي بأسانيده أنهم لما تعبؤوا لدخول الحرم وهيؤوا الفيل، جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب فيها، فإذا وجهوه إلى الحرم رَبَض وصاح. وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه، ليقهر الفيل على دخول الحرم. وطال الفصل في ذلك. هذا وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة، منهم المطعم بن عدي، وعمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، ومسعود بن عمرو الثقفي، على حراء ينظرون إلى ما الحبشة يصنعون، وماذا يلقون من أمر الفيل، وهو العجب العجاب. فبينما هم كذلك، إذ بعث الله عليهم طيراً أبابيل، أي قطعاً قطَعاً صفراً دون الحمام، وأرجلها حمر، ومع كل طائر ثلاث أحجار، وجاءت فحلقت عليهم، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا. وقال محمد بن كعب: جاؤوا بفيلين فأما محمود فرَبَض، وأما الآخر فَشَجُع فحُصِب. وقال وهب بن مُنَبِّه: كان معهم فيلة، فأما محمود ـ وهو فيل الملك ـ فربض، ليقتدي به بقية الفيلة، وكان فيها فيل تشجّع فحصب، فهربت بقية الفيلة. وقال عطاء بن يسار، وغيره: ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعاً، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون، وكان أبرهة ممن يتساقط عضواً عضواً، حتى مات ببلاد خثعم. قال ابن إسحاق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنْمُلة أنْمُلة، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون. وذكر مقاتل بن سليمان: أن قريشاً أصابوا مالاً جزيلاً من أسلابهم، وما كان معهم، وأن عبد المطلب أصاب يومئذٍ من الذهب ما ملأ حفرة. وقال ابن إسحاق: وحدثني يعقوب بن عُتْبَة: أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجُدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رؤي به مرائر الشجر الحَرْمل، والحنظل والعُشر، ذلك العام. وهكذا روي عن عكرمة، من طريق جيد.

قال ابن إسحاق: فلما بعث الله محمداً كان فيما يَعُد به على قريش من نعْمَته عليهم وفضله، ما رَدّ عنهم من أمر الحبشة، لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾. ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [سورة قريش] أي: لئلا يغير شيئاً من حالهم التي كانوا عليها، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه. قال ابن هشام: الأبابيل الجماعات، ولم تتكلم العرب بواحدة. قال: وأما السجيل، فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب: الشديد الصلب. قال: وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية، جعلتهما العرب كلمة واحدة، وإنما هو سَنْج وجل يعني بالسنج: الحجر، والجل: الطين. يقول: الحجارة من هذين الجنسين: الحجر والطين. قال: والعصفُ: ورقُ الزرع الذي لم يُقضب، واحدته عصفة. انتهى ما ذكره. وقد قال حماد بن سلمة: عن عاصم، عن زر، عن عبد الله ـ وأبو سلمة بن عبد الرحمن ـ: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: الفرق. وقال ابن عباس، والضحاك: أبابيل يتبع بعضها بعضاً. وقال الحسن البصري، وقتادة: الأبابيل: الكثيرة. وقال مجاهد: أبابيل: شتى متتابعة مجتمعة. وقال ابن زيد: الأبابيل: المختلفة، تأتي من ها هنا، ومن ها هنا، أتتهم من كل مكان. وقال الكسائي: سمعت النحويين يقولون: أبُول مثل العجول. قال: وقد سمعت بعض النحويين يقول: واحد الأبابيل: إبيل. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثني عبد الأعلى، حدثني داود، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل؛ أنه قال في قوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ هي: الأقاطيع، كالإبل المؤبلة. وحدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن ابن عون، عن ابن سيرين، عن ابن عباس: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ قال: لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب. وحدثنا يعقوب، حدثنا

هُشَيم، أخبرنا حصين عن عكرمة في قوله: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع. وحدثنا ابن بشار، حدثنا ابن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن عبيد بن عمير: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: هي طير سود بحرية، في منقارها وأظافيرها الحجارة. وهذه أسانيد صحيحة. وقال سعيد بن جبير: كانت طيراً خضراً لها مناقير صفر، تختلف عليهم. وعن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء: كانت الطير الأبابيل مثل التي يقال لها عنقاء مُغْرب. رواه عنهم ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن عبيد بن عمير، قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل، بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر، أمثال الخطاطيف. كل طير منها تحمل ثلاثة أحجار مُجَزعة: حجرين في رجليه وحجراً في منقاره. قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم، ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا وخرج من الجانب الآخر. وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً. وقال السُّدي، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ قال: طين في حجارة: «سَنْك ـ وكل» وقد قدمنا بيان ذلك بما أغنى عن إعادته ها هنا. وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾: قال سعيد بن جبير: يعني التبن الذي تسميه العامة: هبور. وفي رواية عن سعيد: ورق الحنطة. وعنه أيضاً: العصف: التبن. والمأكول: القصيل يجز للدواب. وكذلك قال الحسن البصري. وعن ابن عباس: العصف: القشرة التي على الحبة، كالغلاف على الحنطة. وقال ابن زيد: العصف: ورق الزرع، وورق البقل، إذا أكلته البهائم فراثته، فصار دريناً. والمعنى: أن الله، سبحانه وتعالى، أهلكهم ودمرهم، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، كما جرى لملكهم أبرهة، فإنه انصدع صَدْرُه عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم، ثم مات. فملك بعده ابنه يكسُوم، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة. ثم خرج سيف بن ذي يَزَن الحميري إلى كسرى فاستغاثه على الحبشة، فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه، فرد الله إليهم ملكهم، وما كان في آبائهم من الملك، وجاءته وفود العرب للتهنئة. وقد قال محمد بن إسحاق: حدثنا عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مُقعَدَين، يستطعمان. ورواه الواقدي، عن عائشة مثله. ورواه أيضاً عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: كانا مقعدين يستطعمان الناس، عند إساف ونائلة، حيث يذبح المشركون ذبائحهم. قلت: كان اسم قائد الفيل: أنيساً. وقد ذكر الحافظ أبو نعيم في كتاب «دلائل النبوة» من طريق ابن وهب، عن ابن لَهِيعة عن عقيل بن خالد، عن عثمان بن المغيرة قصة أصحاب الفيل، ولم يذكر أن أبرهة قدم من اليمن، وإنما بعث على الجيش رجلاً يقال له: شمر بن مفصود، وكان الجيش عشرين ألفاً، وذكر أن الطير طرقتهم ليلاً، فأصبحوا صرعى. وهذا السياق غريب جداً، وإن كان أبو نُعيم قد قواه ورجحه على غيره. والصحيح أن أبرهة الأشرم الحبشي قدم مكة كما دل على ذلك السياقات والأشعار. وهكذا روى ابن لَهِيعة، عن الأسود، عن عُرْوَة: أن أبرهة بعث الأسود بن مفصود على كتيبة معهم الفيل، ولم يذكر قدوم أبرهة نفسه، والصحيح قدومه، ولعل ابن مفصود كان على مقدمة الجيش، والله أعلم. ثم ذكر ابن إسحاق شيئاً من أشعار العرب، فيما كان من قصة أصحاب الفيل، فمن ذلك شعر عبد الله بن الزبعري:

تَنَكَّلُوا عن بطن مكّةَ إنها ... كانت قديماً لا يُرام حَريمها
لم تُخلَق الشّعرَى ليالي حُرّمتْ ... إذ لا عزيزَ من الأنام يَرُومها
سائل أميرَ الجيش عنها ما رَأى؟ ... فلسوفَ يُنبي الجاهلين عليمها
ستونَ ألفاً يَؤُوبوا أرضهم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانتْ بها عادٌ وجُرْهُم قبلهم ... والله من فوق العباد يُقيمها

وقال أبو قيس بن الأسلت الأنصاري المري:

ومن صُنعه يوم فيل الحُبُو ... ش، إذ كل ما بَعَثُوه رَزَمْ
محاجنهم تحت أقرابه ... وقد شَرَموا أنفه فانخرم
وقد جعلوا سوطه مغولاً ... إذا يَمَّمُوه قَفَاه كُلِم
فولّى وأدبر أدراجه ... وقد باء بالظلم من كان ثَمّ

فأرسل من فوقهم حاصباً يلفهم مثل لف القزم
تحث على الصبر أحبارهم وقد ثأجوا كثؤاج الغنم

وقال أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، ويروى لأمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة:

إن آيات ربّنا باقياتٌ ما يُمارى فيهنّ إلا الكفورُ
خُلِقَ الليلُ والنهارُ فكُلّ مستبينٌ حسابُه مَقْدُورُ
ثم يجلو النهارَ ربٌ رحيمٌ بمهاة شُعَاعها منشورُ
حُبِسَ الفيلُ بالمغمَّس حَتَى صار يَحْبُو، كأنه معقورُ
لازماً حَلْقُه الجران كما قُطّر من ظَهر كَبْكَب مَحدُورُ
حوله من مُلُوك كِندَة أبطالٌ ملاويثُ في الحُرُوب صُقُورُ
خَلَّفُوه ثم ابذَعرّوا جميعاً، كُلّهم عَظْمُ ساقه مَكْسُورُ
كُلّ دين يَوم القِيَامَة عندَ الـ ـله إلا دِينُ الحَنِيفَة بورُ

وقد قدمنا في تفسير «سورة الفتح» أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش، بركت ناقته، فزجروها فألَّحت، فقالوا، خلأت القصواء، أي: حَرَنت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خطة يُعَظمون فيها حُرُمات الله، إلا أجبتهم إليها». ثم زجرها فقامت. والحديث من أفراد البخاري. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حُرمَتُها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

آخر تفسير سورة «الفيل»

❁ ❁ ❁

(١٠٥) سورة الفيل مكية وآياتها خمس

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ .

روي أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس وأراد أن يصرف إليها الحاج فخرج من بنى كنانة رجل وتغوط فيها ليلا فأغضبه ذلك . وقيل أججت رفقة من العرب ناراً فحملتها الريح فأحرقتها فحلف ليهدمن الكعبة فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه محمود وكان قوياً عظيما ، وثمانية أخرى ، وقيل إثنا عشر ، وقيل ألف ، فلما بلغ قريباً من مكة خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى وعبأ جيشه ، وقدم الفيل فكانوا كلما وجهوه إلى جهة الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى جهة اليمن أو إلى سائر الجهات هرول ، ثم إن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتى بعير فخرج إليهم فيها فعظم فى عين أبرهة وكان رجلا جسيما وسيما ، وقيل هذا سيد قريش ، وصاحب عير مكة فلما ذكر حاجته ، قال سقطت من عيني جئت لأهدم البيت الذى هو دينك ودين آبائك فألهاك عنه ذود أخذ لك ، فقال أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعك عنه ، ثم رجع وأتى البيت وأخذ بحلقته وهو يقول :

لاهم إن المرء يمنع حله فامنع حلالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدوا محالك
إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمر ما بدالك

ويقول : يارب لا أرجولهم سواكا يارب فامنع عنهم حماكا

فالتفت وهو يدعو ، فإذا هو بطير من نحو اليمن ، فقال والله إنها لطير غريبة ما هى بنجدية ولا

تهامية ، وكان مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة وعن ابن عباس أنه رأى منها عند أم هانىء نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفاري ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه فهلكوا في كل طريق ومنهل ، ودوى أبرهة فتساقطت أنامله ، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه ، حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة . فلما أتمها وقع عليه الحجر وخر ميتاً بين يديه ، وعن عائشة قالت «رأيت قائد الفيل» وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان ، ثم في الآية سؤالات .

﴿الأول﴾ لم قال (ألم تر) مع أن هذه الواقعة وقعت قبل المبعث بزمان طويل ؟ (الجواب) المراد من الرؤية العلم والتذكير ، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر فكان العلم الحاصل به ضرورياً مساوياً في القوة والجلاء للرؤية ، ولهذا السبب قال لغيره على سبيل الذم (أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون) لا يقال : فلم قال (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) لأنا نقول : الفرق أن ما لا يتصور إدراكه لا يستعمل فيه إلا العلم لكونه قادراً ، وأما الذي يتصور إدراكه كفرار الفيل ، فإنه يجوز أن يستعمل فيه الرؤية .

﴿السؤال الثاني﴾ لم قال (ألم تر كيف فعل ربك) ولم يقل ألم تر ما فعل ربك ؟ (الجواب) لأن الأشياء لها ذوات ، ولها كيفيات باعتبارها يدل على مداومتها وهذه الكيفية هي التي يسميها المتكلمون وجه الدليل ، واستحقاق المدح إنما يحصل برؤية هذه الكيفيات لا برؤية الذوات ولهذا قال (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) ولا شك أن هذه الواقعة كانت دالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته ، وكانت دالة على شرف محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن مذهبنا أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيساً لنبوتهم وإرهاصاً لها . ولذلك قالوا : كانت الغمامة تظله ، وعند المعتزلة ، أن ذلك لا يجوز ، فلا جرم زعموا أنه لابد وأن يقال كان في ذلك الزمان نبي [أو خطيب] كخالد بن سنان أو قس بن ساعدة . ثم قالوا ولا يجب أن يشتهر وجودهما ، ويبلغ إلى حد التواتر ، لاحتمال أنه كان مبعوثاً إلى جمع قليلين ، فلا جرم لم يشتهر خبره .

واعلم أن قصة الفيل واقعة على الملحدين جداً ، لأنهم ذكروا في الزلازل والرياح والصواعق وسائر الأشياء التي عذب الله تعالى بها الأمم أعذاراً ضعيفة ، أما هذه الواقعة فلا تجري فيها تلك الأعذار ، لأنها ليس في شيء من الطبائع والحيل أن يقبل طير معها حجارة ، فتقصد قوماً دون قوم فتقتلهم ، ولا يمكن أن يقال إنه كسائر الأحاديث الضعيفة لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول إلا نيف وأربعون سنة ويوم تلا الرسول هذه السورة كان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة ، ولو كان النقل ضعيفاً لشافهوه بالتكذيب ، فلما لم يكن كذلك علمنا أنه لا سبب للطعن فيه .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال (فعل) ولم يقل جعل ولا خلق ولا عمل (الجواب) لأن خلق يستعمل لابتداء الفعل ، وجعل للكيفيات قال تعالى (خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) وعمل بعد الطلب وفعل عام فكان أولى لأنه تعالى خلق الطيور وجعل طبع الفيل على خلاف ماكانت عليه ، وسألوه أن يحفظ البيت ، ولعله كان فيهم من يستحق الإجابة ، فلو ذكر الألفاظ الثلاثة لطال الكلام فذكر لفظاً يشمل الكل .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لم قال ربك ، ولم يقل الرب ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) كأنه تعالى قال إنهم لما شاهدوا هذا الانتقام ثم لم يتركوا عبادة الأوثان ، وأنت يامحمد ماشاهدته ثم اعترفت بالشكر والطاعة ، فكأنك أنت الذى رأيت ذلك الانتقام ، فلاجرم تبرأت عنهم واخترتك من الكل ، فأقول ربك ، أى أنا لك ولست لهم بل عليهم (وثانيها) كأنه تعالى قال : إنما فعلت بأصحاب الفيل ذلك تعظيما لك وتشريفاً لمقدمك ، فأنا كنت مربياً لك قبل قومك ، فكيف أترك تربيتك بعد ظهورك ، ففيه بشارة له عليه السلام بأنه سيظفر .

﴿ السؤال الخامس ﴾ قوله (ألم تر كيف فعل ربك) مذكور فى معرض التعجب وهذه الأشياء بالنسبة إلى قدرة الله تعالى ليست عجيبة ، فما السبب لهذا التعجب ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) أن الكعبة تبع لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن العلم يؤدى بدون المسجد أما لا مسجد بدون العالم فالعالم هو الدر والمسجد هو الصدف ، ثم الرسول الذى هو الدر همزه الوليد ولمزه حتى ضاق قلبه ، فكأنه تعالى يقول إن الملك العظيم لما طعن فى المسجد هزمته وأفنيته ، فمن طعن فيك وأنت المقصود من الكل ألا أفنيه وأعدمه ! إن هذا لعجيب (وثانيها) أن الكعبة قبلة صلاتك وقلبك قبلة معرفتك ، ثم أنا حفظت قبلة عملك عن الأعداء ، أفلا نسعى فى حفظ قبلة دينك عن الآثام والمعاصى ! .

﴿ السؤال السادس ﴾ لم قال (أصحاب الفيل) ولم يقل أرباب الفيل أو ملاك الفيل ؟ (الجواب) لأن الصاحب يكون من الجنس ، فقوله (أصحاب الفيل) يدل على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل فى البهيمية وعدم الفهم والعقل ، بل فيه دقيقة ، وهى : أنه إذا حصلت المصاحبة بين شخصين ، فيقال للأدون إنه صاحب الأعلى ، ولا يقال للأعلى إنه صاحب الأدون ، ولذلك يقال لمن صحب الرسول عليه السلام إنهم الصحابة ، فقوله (أصحاب الفيل) يدل على أن أولئك الأقوام كانوا أقل حال وأدون منزلة من الفيل ، وهو المراد من قوله تعالى (بل هم أضل) ومما يؤكد ذلك أنهم كلما وجهوا الفيل إلى جهة الكعبة كان يتحول عنه ويفر عنه ، كأنه كان يقول لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق عزى حميد فلا أتركه وهم ماكانوا يتركون تلك العزيمة الردية فدل ذلك على أن الفيل كان أحسن حالا منهم .

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾

﴿ السؤال السابع ﴾ أليس أن كفار قريش كانوا ملأوا الكعبة من الأوثان من قديم الدهر ، ولا شك أن ذلك كان أقبح من تخريب جدران الكعبة ، فلم سلط الله العذاب على من قصد التخريب ، ولم يسلط العذاب على من ملأها من الأوثان ؟ (والجواب) لأن وضع الأوثان فيها تعد على حق الله تعالى ، وتخريبها تعد على حق الخلق ، ونظيره قاطع الطريق ، والباغي والقاتل يقتلون مع أنهم مسلمون ، ولا يقتل الشيخ الكبير والأعمى وصاحب الصومعة والمرأة ، وإن كانوا كفار ، لأنه لا يتعدى ضررهم إلى الخلق .

﴿ السؤال الثامن ﴾ كيف القول فى إعراب هذه الآية ؟ (الجواب) قال الزجاج : كيف فى موضع نصب بفعل لا بقوله (ألم تر) لأن كيف من حروف الاستفهام .

واعلم أنه تعالى ذكر ما فعل بهم . فقال ﴿ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية ، إن قيل فلم سماه كيداً وأمره كان ظاهراً ، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت ؟ قلنا نعم ، لكن الذى كان فى قلبه شر مما أظهر ، لأنه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة : إضافة الكيد اليهم دليل على أنه تعالى لا يرضى بالقبيح ، إذلو رضى لأضافه إلى ذاته ، كقوله (الصوم لى) (والجواب) أنه ثبت فى علم النحو أنه يكفى فى حسن الإضافة أدنى سبب ، فلم لا يكفى فى حسن هذه الاضافة وقوعه مطابقاً لإرادتهم واختيارهم ؟ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (فى تضليل) أى فى تضييع وإبطال يقال ضلل كيده إذا جعله ضالا ضائعا ونظيره قوله تعالى (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) وقيل لامرىء القيس : الملك الضليل ، لأنه ضلل ملك أبيه أى ضيعه . بمعنى أنهم كادوا البيت أولا ببناء القليس وأرادوا أن يفتتحوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه ، فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه ، ثم كادوه ثانياً بإرادة هدمه فضلل بإرسال الطير عليهم ، ومعنى حرف الظرف كما يقال سعى فلان فى ضلال ، أى سعيهم كان قد ظهر لكل عاقل أنه كان ضلال وخطأ .

ثم قال تعالى ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ وفيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قال (طيراً) على التنكير ؟ (والجواب) إما للتحقير فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر ، أو للتفخيم كأنه يقول طيراً وأى طير ترمى بحجارة صغيرة فلا تخطىء المقتل .

تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الأبابيل (الجواب) أما أهل اللغة قال أبو عبيدة أبابيل جماعة فى تفرقة ، يقال جاءت الخيل أبابيل أبابيل من ههنا وههنا ، وهل لهـذه اللفظة واحد أم لا ؟ فيه قولان (الأول) وهو قول الأخفش والفراء أنه لا واحد لها وهو مثل الشماطيط والعباديد ، لا وحد لها (والثانى) أنه له واحد ، ثم على هذا القول ذكروا ثلاثة أوجه (أحدها) زعم أبو جعفر الرؤاسى وكان ثقة مأموناً أنه سمع واحدها إبالة ، وفى أمثالهم : ضغث على إبالة ، وهى الحزمة الكبيرة سميت الجماعة من الطير فى نظامها بالإبالة (وثانيها) قال الكسائى كنت أسمع النحويين يقولون إبول وأبابيل كعجول وعجاجيل (وثالثها) قال الفراء ولو قال قائل واحد الأبابيل إيبالة كان صواباً كما قال : دينار ودنانير .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما صفة تلك الطير ؟ (الجواب) روى ابن سيرين عن ابن عباس قال كانت طيراً لها خراطيم كخراطيم الفيل وأكف كأكف الكلاب ، وروى عطاء عنه قال طير سود جاءت من قبل البحر فوجا فوجا ، ولعل السبب أنها أرسلت إلى قوم كان فى صورتهم سواد اللون وفى سرهم سواد الكفر والمعصية ، وعن سعيد بن جبير أنها بيض صغار ولعل السبب أن ظلمة الكفر انهزمت بها ، والبياض ضد السواد ، وقيل كانت خضراً ولها رءوس مثل رءوس السباع ، وأقول إنها لما كانت أفواجا ، فلعل كل فوج منها كان على شكل آخر فكل أحد وصف ما رأى ، وقيل كانت بلقاء كالخطاطيف .

قوله تعالى : ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو حيوة : يرميهم أى الله أو الطير لأنه اسم جمع مذكر ، وإنما يؤنث على المعنى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى كيفية الرمى وجوهاً (أحدها) قال مقاتل : كان كل طائر يحمل ثلاثة أحجار ، واحد فى منقاره واثنان فى رجليه يقتل كل واحد رجلا ، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه ما وقع منها حجر على موضع إلا خرج من الجانب الآخر ، وإن وقع على رأسه خرج من دبره (وثانيها) روى عكرمة عن ابن عباس ، قال لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفط جلده وثار به الجدرى ، وهو قول سعيد بن جبير ، وكانت تلك الأحجار أصغرها مثل العدسة ، وأكبرها مثل الحمصة .

واعلم أن من الناس من أنكر ذلك ، وقال لو جوزنا أن يكون فى الحجارة التى تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله ، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خالياً عن الثقل وأن يكون فى وزن التبنة ، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات ، فإنه متى

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار ولانراها ، وأن يحصل الإدراك فى عين الضرير حتى يكون هو بالمشرق ويرى بقعة فى الأندلس ، وكل ذلك محال . واعلم أن ذلك جائز على مذهبنا إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكروا فى السجيل وجوهاً (أحدها) أن السجيل كأنه علم للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجيناً علم لديوان أعمالهم ، كأنه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون ، واشتقاقه من الإسجال ، وهو الإرسال ، ومنه السجل الدلو المملوء ماء ، وإنما سمى ذلك الكتاب بهذا الإسم لأنه كتب فيه العذاب ، والعذاب موصوف بالإرسال لقوله تعالى (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) وقوله (فأرسلنا عليهم الطوفان) فقوله (من سجيل) أى مما كتبه الله فى ذلك الكتاب (وثانيها) قال ابن عباس سجيل معناه سنك وكل ، يعنى بعضه حجر وبعضه طين (وثالثها) قال أبو عبيدة السجيل الشديد (ورابعها) السجيل اسم لسماء الدنيا (وخامسها) السجيل حجارة من جهنم ، فإن سجيل اسم من أسماء جهنم فأبدلت النون باللام .

قوله تعالى : ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى تفسير العصف وجوهاً ذكرناها فى قوله (والحب ذو العصف) وذكروا ههنا وجوهاً : (أحدها) أنه ورق الزرع الذى يبقى فى الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله المواشى (وثانيها) قال أبو مسلم العصف التبن لقوله (ذو العصف والريحان) لأنه تعصف به الريح عند الذر فتفرقه عن الحب ، وهو إذا كان مأكولا فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه (وثالثها) قال الفراء هو أطراف الزرع قبل أن يدرك السنبل (ورابعها) هو الحب الذى أكل لبه وبقى قشره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى تفسير المأكول وجوهاً (أحدها) أنه الذى أكل ، وعلى هذا الوجه ففيه احتمالان :

﴿ أحدهما ﴾ أن يكون المعنى كزرع وتبن قد أكلته الدواب ، ثم ألقته روثاً ، ثم يجف وتتفرق أجزاؤه ، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث ، إلا أن العبارة عنه جاءت على ما عليه آداب القرآن ، كقوله (كانا يأكلان الطعام) وهو قول مقاتل ، وقتادة وعطاء عن ابن عباس .

﴿ والاحتمال الثانى ﴾ على هذا الوجه أن يكون التشبيه واقعاً بورق الزرع إذا وقع فيه الأكال ، وهو أن يأكله الدود (الوجه الثانى) فى تفسير قوله (مأكول) هو أنه جعلهم كزرع قد أكل حبه وبقى تبنه ، وعلى هذا التقدير يكون المعنى : كعصف مأكول الحب كما يقال فلان حسن أى حسن الوجه ، فأجرى مأكول على العصف من أجل أنه أكل حبه لأن هذا المعنى معلوم وهذا

قول الحسن (الوجه الثالث) فى التفسير أن يكون معنى (مأكول) أنه مما يؤكل ، يعنى تأكله الدواب يقال لكل شيء يصلح للأكل هو مأكول والمعنى جعلهم كتبن تأكله الدواب وهو قوله عكرمة والضحاك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعضهم : إن الحجاج خرب الكعبة ، ولم يحدث شيء من ذلك ، فدل على أن قصة الفيل ماكانت على هذا الوجه وإن كانت هكذا إلا أن السبب لتلك الواقعة أمر آخر سوى تعظيم الكعبة (والجواب) أنا بينا أن ذلك وقع إرهاصاً لأمر محمد ﷺ ، والإرهاص إنما يحتاج إليه قبل قدومه ، أمابعد قدومه وتأكد نبوته بالدلائل القاطعة فلا حاجة إلى شيء من ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



١٠٥ ـ سورة الفيل
(مكية وهي خمس آيات)

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ١٠٥ الفيل

﴿ سورة الفيل مكية وآيها خمس ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة لتقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام بإنكار عدمها وكيف معلقة لفعل الرؤية منصوبة بما بعدها والرؤية علمية اى ألم تعلم علماً رصيناً متاخماً للمشاهدة والعيان باستماع الأخبار المتواترة ومعاينة الآثار الظاهرة وتعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لا بنفسه بأن يقال ألم تر مافعل ربك الخ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك من الإرهاصات لما روى أن القصة وقعت فى السنة التى ولد فيها النبى صلى الله عليه وسلم وتفصيلها أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى بصنعاء كنيسة وسماها القليس وأراد أن يصرف إليها الحاج فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلا فأغضبه ذلك وقيل أججت رفقة من العرب ناراً فحملتها الريح فأحرقتها فحلف ليهد الكعبة فخرج مع جيشه ومعه فيل له اسمه محمود وكان قوياً عظيما وإثنا عشر فيلا غيره وقيل ثمانية وقيل ألف وقيل كان معه وحده فلما بلغ المغمس خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى وعبأ جيشه وقدم الفيل فكان كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هرول فأرسل الله تعالى طيراً سوداً وقيل خضراً وقيل بيضاً مع كل طائر حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ففروا فهلكوا فى كل طريق ومنهل وروى أن أبرهة تساقطت أنامله وآرابه وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشى فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتاً بين يديه وقيل إن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتى بعير فخرج إليه فى شأنها فلما رآه أبرهة عظم فى عينه وكان رجلا وسيما جسيما وقيل هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذى يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رؤس الجبال فنزل أبرهة عن سريره وجلس على بساطه وقيل أجلسه معه على سريره ثم قال لترجمانه قل له ماحاجتك فلما ذكر حاجته قال سقطت من عينى حيث جئت لأهدم البيت الذى هو دينك ودين

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ ١٠٥ الفيل

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ ١٠٥ الفيل

تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ١٠٥ الفيل

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ١٠٥ الفيل

آبائك وعصمتكم وشرفكم فى قديم الدهر لاتكلمنى فيه ألهاك عنه ذود أخذت لك فقال عبد المطلب أنا رب الإبل وإن للبيت رباً يحميه ثم رجع وأتى باب الكعبة فأخذ بحلقته ومعه نفر من قريش يدعون الله عز وجل فالتفت وهو يدعو فإذ هو بطير من نحو اليمن فقال والله إنها الطير غريبة ماهى نجدية ولا تهامية فأرسل حلقة الباب ثم انطلق مع أصحابه ينتظرون ماذا يفعل أبرهة فأرسل الله تعالى عليهم الطير فكان ما كان وقيل كان أبرهة جد النجاشى الذى كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وعن عائشة رضى الله عنها قالت رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان وقرىء ألم تر بسكون الراء للجد فى
٢ إظهار أثر الجازم وقوله تعالى (ألم يجعل كيدهم فى تضليل) الخ بيان إجمالى لما فعله الله تعالى بهم والهمزة للتقرير كما سبق ولذلك عطف على الجملة الاستفهامية مابعدها كأنه قيل قد جعل كيدهم فى تعطيل الكعبة
٣ وتخريبها فى تضييع وإبطال بأن دمرهم أشنع تدمير (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) أى طوائف وجماعات جمع إبالة وهى الحزمة الكبيرة شبهت بها الجماعة من الطير فى تضامها وقيل أبابيل مثل عبابيد وشماطيط
٤ لا واحد لها (ترميهم بحجارة) صفة لطيراً وقرىء يرميهم بالتذكير لأن الطير اسم جمع تأنيثه باعتبار
* المعنى (من سجيل) من طين متحجر معرب سنك كل وقيل كأنه علم للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار كما أن سجيناً علم للديوان الذى يكتب فيه أعمالهم كأنه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب
٥ المدون واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال (فجعلهم كعصف مأكول) كورق زرع فيه الآكال وهو أن يأكله الدود أو أكل حبه فبقى صفراً منه أو كتبن أكلته الدواب وراثته أشير إليه بأول أحواله عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفيل أعفاه الله تعالى أيام حياته من الخسف والمسخ والله أعلم .

سورة الفيل

مكية وآيها خمس بلا خلاف فيهما وكانه لما تضمن الهمز واللمزمن الكفرة نوع كيد له عليه الصلاة والسلام عقب ذلك بقصة أصحاب الفيل للاشارة الى أن عقبى كيدهم في الدنيا تدميرهم فان عناية الله عز وجل برسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أقوى وأتم من عنايته سبحانه بالبيت فالسورة مشيرة الى مآلهم في الدنيا اثر بيان مآلهم في الاخرى ويجوز ان تكون كالاستدلال على ماأشير اليه فيما قبلها من أن المال لايغنى من الله تعالى شيئاً أو على قدرته عزوجل على انفاذ ماتوعد به أولئك الكفرة فى

قوله سبحانه لينبذن في الحطمة الخ

﴿بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الظاهر ان الخطاب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والهمزة لتقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام بانكار عدمها وهي بصرية تجوز بها عن العلم على سبيل الاستعارة التبعية أو المجاز المرسل لانها سببيه ويجوز جعلها علمية من اول الأمر الا ان ذاك أبلغ وعلمه صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك لما أنه سمعه متواترا وكيف في محل نصب على المصدرية بفعل والمعنى أى فعل فعل وقيل على الحالية من الفاعل والكيفية حقيقة للفعل لابالم تر لمكان الاستفهام والجملة سادة مسد المفعولين لتر وجوز بعضهم نصب كيف بتر لانسلاخ معنى الاستفهام عنه كما في شرح المفتاح الشريفي وصرح أبو حيان بامتناعه لانه يراعى صدارته ابقاء لحكم اصله وتعليق الرؤية بكيفية فعله تعالى شانه لابنفسه بان يقال ألم تر مافعل ربك الخ لتهويل الحادثة والايذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وغريبته وشرف رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فان ذلك كما قال غير واحد من الارهاصات لما روى أن القصة وقعت في السنة التى ولد فيها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال ابراهيم بن المنذر شيخ البخارى لا يشك في ذلك أحد من العلماء وعليه الاجماع وكل ماخالفه وهم أى من أنها كانت قبل بعشر سنين أو بخمس عشرة سنة أو بثلاث وعشرين سنة أو بثلاثين سنة أو باربعين سنة أو بسبعين سنة الاقوال المذكورة في كتب السير وعلى الاول المرجح الذى عليه الجمهور قيل ولادته عليه الصلاة والسلام في اليوم الذى بعث الله تعالى فيه الطير على أصحاب الفيل من ذلك العام وهو المذكور في تاريخ ابن حبان وهو ظاهر قول ابن عباس ولد عليه الصلاة والسلام يوم الفيل وذهب السهيلي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولد بعدها بخمسين يوما وكانت في المحرم والولادة في شهر ربيع الاول وقال الحافظ الدمياطي بخمسة وخمسين يوما وقيل باربعين وقيل بشهر والمشهور ما ذهب اليه السهيلي وفي قوله تعالى ربك نوع رمز الى الارهاص وكون ذلك لشرف البيت ودعوة الخليل عليه السلام لا ينافي الارهاص وكذا لا ينافيه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم في الحديبية لما بركت ناقته وقال الناس خلأت أى حرنت ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل اذ لم يدع أن ما كان للارهاص لا غير ومثل هذه العلل لا يضر تعددها ويؤيد الارهاص قصة القرامطة وغيرهم وتفصيل القصة ان أبرهة الاشرم بن الصباح الحبشى كما قال ابن اسحق وغيره وهو الذى يكنى بأبى يكسوم بالسين المهملة ولا يأباه التسمية بابرهة بناء على أن معناه بالحبشة الابيض الوجه كما لا يخفى وقيل انه الحميرى خرج على ارباط ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشى بكسر النون بعد سنتين من سلطانه فتبارزا وقد أرصد الاشرم خلفه غلامه عتورة فحمل عليه ارباط بحربة فضربه يريد يافوخه فوقعت على جبهته فشرمت حاجبه وأنفه وعينه وشفته ولذا سمي الاشرم فحمل عتورة من خلف أرهة فقتله وملك مكانه فغضب النجاشى فاسترضاه فرضى فاثبته ثم أنه بنى بصنعاء كنيسة لم ير مثلها في زمانها سماها القليس بقاف مضمومة ولام مفتوحة مشددة كما في ديوان الادب أو مخففة كما قيل وبعدها ياء مثناة سفلية ثم سين مهملة وكان ينقل اليها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب على مايقال من قصر بلقيس زوج سليمان عليه السلام وكتب الى النجاشى انى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها قبلك ولست بمنته حتى أصرف اليها حج العرب فلما تحدثت العرب بكتابه ذلك غضب رجل من النساءة أحد بنى فقيم بن عدى من كنانة فخرج حتى أتاها فقعد فيها أى أحدث ولطخ قبلتها بحدثه ثم خرج ولحق بأرضه فأخبر أبرهة

فقال من صنع هـذا فقيل رجل من أهل هـذا البيت الذى تحج اليه العرب بمكة غضب لما سمع قولك اصرف اليها حج العرب ففعل ذلك فاستشاط أبرهة غضبا وحلف ليسيرن الى البيت حتى يهدمه وقيل أججت رفقة من العرب نارا حولها فحملتها الريح فاحرقتها فغضب لذلك فامر الحبشة فتهيأت وتجهزت فخرج في ستين ألفا على ماقيل منهم ومعه فيل اسمه محمود وكان قويا عظيما واثنا عشر فيلا غيره وقيل ثمانية وروى ذلك عن الضحاك وقيل ألف فيل وقيل معه محمود فقط وهو قول الاكثرين الاوفق بظاهر الآية فسمعت العرب بذلك فاعظموه وقلقوابه ورأوا جهاده حقا عليهم فخرج اليه رجل من اشراف اليمن وملوكهم يقال له ذونفر بمن أطاعه من قومه وسائر العرب فقاتله فهزم وأخذ أسيرا فأراد قتله فقال أيها الملك لاتقتلنى فعسى ان يكون بقائى معك خيرا لك من قتلى فتركه وحبسه عنده حتى اذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى بمن معه من قومه وغيرهم فقاتله فهزم وأخذ أسيرا فهم بقتله فقال نحوما سبق فخلى سبيله وخرج به يدله حتى اذا مر بالطائف خرج اليه مسعود بن معيب بن مالك الثقفى في رجال من ثقيف فقال له أيها الملك انما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس لك عندنا خلاف وليس بيتنا هذا الذى تريد يعنون بيت اللات انما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم فبعثوا معه أبارغال فخرج ومعه أبو رغال حتى انزله المغمس كمعظم موضع بطريق الطائف معروف فلما انزله مات أبو رغال ودفن هناك فرجمت قبره العرب كما قال ابن اسحق وقيل القبر الذى هناك لابى رغال رجل من ثمود وهو أبو ثقيف كان بالحرم يدفع عنه فلما خرج منه اصابته النقمة التى أصابت قومه بالمغمس فدفن فيه واختاره صاحب القاموس ذاكرا فيه حديثاً رواه أبو داود في سننه وغيره عن ابن عمر مرفوعا وقال فيما تقدم بعد نقله عن الجوهرى ليس بجيد وجمع بعض بجواز أن يكون قبران لرجلين كل منهما أبورغال ثم أن أبرهة بعث وهو بالمغمس رجلا من الحبشة يقال له الاسود بن مقصور حتى انتهى الى مكة فساق أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وأصاب فيها مائتى بعير وقيل أربعمائة بعير لعبد المطلب وكان يومئذ سيد قريش فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم بحربه فعرفوا أن لا طاقة لهم به فكفوا وبعث أبرهة حياطة الحميرى الى مكة وقال قل لسيد أهل هذا البلد ان الملك يقول انى لم آت لحربكم انما جئت لهدم هذا البيت فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم فان هو لم يرد حربى فائتنى به فلما دخل حياطة دل على عبد المطلب فقال له ما أمر به فقال عبد المطلب والله ما نريد حربه وما لنا به طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم عليه السلام فان يمنعه منه فهو بيته وحرمه وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه ثم انطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نفر وكان صديقه فدخل عليه فقال له هل عندك من غناء فيما نزل بنا فقال وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدوا وعشيا ماعندى غناء فى شىء مما نزل بك الا ان أنيسا سائس الفيل سارسل اليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدالك ويشفع لك عنده بخير ان قدر على ذلك فقال حسبى فبعث اليه فقال له ان عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة ويطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤس الجبال وقد أصاب الملك له مائتى بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت فقال افعل فكلم أبرهة ووصف عبد المطلب بما وصفه به ذو نفر فأذن له وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجلهم فلما رآه أكرمه عن أن يجلس تحته وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه فنزل عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه الى جنبه والقول بانه أعظمه لما رأى من نور النبوة الذى كان في وجهه ضعيف لما فيه من الدلالة على كون

القصة قبل ولادة عبدالله وهو خلاف ما علمت من القول المرجح اللهم الا ان يقال أنه تجلى فيه ذلك النور وان كان قد انتقل ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك فقال حاجتى أن يرد على الملك ابلى فقال أبرهة لترجمانه قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه فلا تكلمنى فيه فقال عبد المطلب انى رب الابل وان للبيت ربا سيمنعه قال ما كان ليمتنع منى قال أنت وذاك وفى رواية انه دخل عليه مع عبد المطلب نفاثة بن عدى سيد بنى بكر وخويلد بن واثلة سيد هذيل فعرضا عليه ثلث أموال أهل تهامة على أن يرجع ولا يهدم البيت فأبى فرد الابل على عبد المطلب فانصرف الى قريش فأخبرهم الخبر فتحرزوا فى شعف الجبال تخوفا من معرة الجيش ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قريش يدعون الله عز وجل ويستنصرونه فقال وهو آخذ بالحلقة

لاهم ان المرء يمـ ☆ ـنع رحله فامنع حلالك
وانصر على آل الصليـ ☆ ـب وعابديه اليوم آلك
لايغلبن صليبهـم ☆ ومحالهم غدوا (١) محالك
جروا جموع بلادهم ☆ والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم ☆ جهلا وما رقبوا جلالك
ان كنت تاركهم وكعـ ☆ ـبتنا فأمر مابدا لك

وقال أيضا

يارب لاأرجو لهم سواكا ☆ يارب فامنع عنهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا ☆ امنعهم أن يخربوا فناكا

ثم أرسل الحلقة وانطلق هو ومن معه الى شعف الجبال ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة اذا دخلها فلما أصبح تهيأ للدخول وعبى جيشه وهيأ الفيل فلما وجهوه الى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام الى جنبه فأخذ باذنه فقال ابرك محمود وارجع راشدا من حيث جئت فانك فى بلد الله الحرام ثم أرسل اذنه فبرك أى سقط وخرج نفيل يشتد حتى أصعد فى الجبل فضربوا الفيل وأوجعوه ليقوم فأبى ووجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول الى الشام ففعل مثل ذلك فوجهوه الى مكة فبرك فسقوه الخمر ليذهب تمييزه فلم ينجع ذلك وقيل ان عبد المطلب هو الذى عرك اذنه وقال له ما ذكر وكان ذلك عند وادى محسر وأرسل الله تعالى طيرا من البحر قيل سودا وقيل خضرا وقيل بيضا مثل الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لاتصيب أحدا منهم الا هلك ويروى أنه يلقيها على رأس أحدهم فتخرج من دبره ويتساقط لحمه فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاؤا يسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق الى اليمن فقال نفيل حين رأى ما نزل بهم

أين المفر والاله الطالب ☆ والاشرم المغلوب ليس الغالب

وقال أيضا

ألا حييت عنا يارديـنا ☆ نعمناكم عن الاصباح عينا
ردينة لو رأيت ولا تريه ☆ لدى جنب المحصب ما رأينا
اذا لعذرتنى وحمدت أمرى ☆ ولاتأسى على ما فات بينا
فكل القوم تسأل عن نفيل ☆ كأن عليه للحبشان دينا

وجعلوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون فى كل منهل وأصيب أبرهة فى جسده وخرجوا به معهم تسقط أنملة أنملة كلما سقطت أنملة تبعها منه مدة ثم دم وقيح حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات

(١) قوله غدوا بالغين المعجمة بمعنى الغدو أريد به تقريب الزمان ويروى عدوا بالمهملة أى ظلما اه منه

حتى انصدع صدره عن قلبه وقد أشار الى ذلك ابن الزبعرى بقوله من أبيات يذكر فيها مكة

سائل أمير الجيش عنا ما ترى ✡ ولسوف ينبي الجاهلين عليمها
ستون ألفاً لم يؤبوا أرضهم ✡ بل لم يعش بعد الاياب سقيمها

ولهم في ذلك شعر كثير ذكر ابن هشام جملة منه في سيره وفيها ان الطير لم تصب كلهم وذكر بعضهم انه لم ينج منهم غير واحد دخل على النجاشي فاخبره الخبر والطير على رأسه فلما فرغ ألقى عليه الحجر فخرقت البناء ونزلت على رأسه فالحقته بهم وقيل ان سائس الفيل وقائده تخلفا في مكة فسلما فعن عائشة أنها قالت أدركت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس وعن عكرمة ان من اصابه الحجر جدرته وهو أول جدري ظهر أي بارض العرب فعن يعقوب بن عتبة انه حدث ان أول ماروئيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام وأنه أول ماروئي بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام أيضا ويروى أن عبد المطلب لما ذهب الى شعف الجبال بمن معه بقي ينتظر مايفعل القوم وما يفعل بهم فلما أصبح بعث أحد أولاده على فرس له سريع ينظر مالقوا فذهب فاذا القوم مشدخين جميعا فرجع رافعا رأسه كاشفا عن فخذه فلما رأى ذلك أبوه قال ألا ان ابني أفرس العرب وما كشف عن عورته الابشيراً أو نذيراً فلما دنا من ناديهم قالوا ماوراءك قال هلكوا جميعا فخرج عبد المطلب وأصحابه اليهم فأخذوا أموالهم وقال عبد المطلب

أنت منعت الحبش والافيالا ✽ وقد رعوا بمكة الاحبالا
وقد خشينا منهم القتالا ✽ وكل أمر منهم معضالا
✽ شكراً وحمداً لك ذا الجلالا ✽

هذا ومن أراد استيفاء القصة على أتم مما ذكر فعليه بمطولات كتب السير وقرأ السلمي ألم تر بسكون الراء جدا في اظهار أثر الجازم لان جزمه بحذف آخره فاسكان ماقبل الآخر للاجتهاد في اظهار أثر الجازم قيل والسر فيه هنا الاسراع الى ذكر مابهم من الدلالة على أمر الالوهية والنبوة أو الاشارة الى الحث في الاسراع بالرؤية ايماء الى ان أمرهم على كثرتهم كان كلمح البصر من لم يسارع الى رؤيته لم يدركه حق ادراكه وتعقب هذا بان تقليل البنية يدل على قلة المدى وهو الرؤية لاعلى قلة زمانه وقيل لعل السر فيه الرمز من أول الامر الى كثرة الحذف في أولئك القوم فتدبر وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ الخ بيان اجمالي لما فعل الله تعالى بهم والهمزة للتقرير كما سبق ولذلك عطف على الجملة الاستفهامية مابعدها كأنه قيل قد جعل كيدهم في تعطيل الكعبة وتخريبها وصرف شرف أهلها لهم في تضييع وابطال بان دمرهم أشنع تدمير وأصل التضليل من ضل عنه اذا ضاع فاستعير هنا للابطال ومنه قيل لامرىء القيس الضليل لانه ضلل ملك أبيه وضيعه ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي جماعات جمع ابالة بكسر الهمزة وتشديد الباء الموحدة وحكى الفراء ابالة مخففا وهي حزمة الحطب الكبيرة شبهت بها الجماعة من الطير في تضامها وتستعمل أيضا في غيرها ومنه قوله

كادت تهد من الاصوات راحلتي ✡ اذ سالت الارض بالجرد الابابيل

وقيل واحده إبول مثل عجول وقيل إبيل مثل سكين وقيل أبال وقال أبو عبيدة والفراء لاواحد له من لفظه كعباديد الفرق من الناس الذاهبون في كل وجه والشماطيط القطع المتفرقة وجاءت هذه الطير على ماروى عن جمع من جهة البحر ولم تكن نجدية ولا تهامية ولا حجازية وزعم بعض ان حمام

الحرم من نسلها ولايصح ذلك ومثله ما نقل عن حياة الحيوان من انها تعشش وتفرخ بين السماء والارض وقد تقدم الخلاف في لونها وعن عكرمة كأن وجوهها مثل وجوه السباع لم تر قبل ذلك ولا بعده ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ﴾ صفة أخرى لطير وعبر بالمضارع لحكاية الحال واستحضار تلك الصورة البديعة وقرأ أبو حنيفة وأبو يعمر وعيسى وطلحة في رواية يرميهم بالياء التحتية والضمير المستتر للطير أيضا والتذكير لانه اسم جمع وهو على ما حكى الخفاجي لازم التذكير فتأنيثه لتأويله بالجماعة وقيل يجوز الامران وهو ظاهر كلام أبى حيان وقيل الضمير عائد على ربك وليس بذاك ونسبة القراءة المذكورة لابى حنيفة رضى الله تعالى عنه حكاها في البحر وعن صاحب النشر أنه رضى الله تعالى عنه لاقراءة له وان القرا آت المنسوبة له موضوعة ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾ صفة حجارة أى كائنة من طين متحجر معرب سنك كل وقيل هو عربى من السجل بالكسر وهو الدلو الكبيرة ومعنى كون الحجارة من الدلو أنها متتابعة كثيرة كالماء الذى يصب من الدلو ففيه استعارة مكنية وتخييلية وقيل من الاسجال بمعنى الارسال والمعنى من مثل شيء مرسل ومن في جميع ذلك ابتدائية وقيل من السجل وهو الكتاب أخذ منه السجين وجعل علما للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار والمعنى من جملة العذاب المكتوب المدون فمن تبعيضة واختلف في حجم تلك الطير وكذا في حجم تلك الحجارة فمن أنها مثل الخطاطيف وان الحجارة أمثال الحمص والعدس وأخرج أبو نعيم عن نوفل بن أبى معاوية الديلمى انه قال رأيت الحصى التى رمى بها اصحاب الفيل حصى مثل الحمص واكبر من العدس حمر بحتمة(١) كأنها جزع ظفار وأخرج ابو نعيم في الدلائل عن ابن عباس أنه قال حجارة مثل البندق وفي رواية ابن مردويه عنه مثل بعر الغنم وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن عبيد بن عمير أنه قال في الآية هي طير خرجت من قبل البحر كانها رجال السند معها حجارة أمثال الابل البوارك وأصغرها مثل رؤس الرجال لاتريد أحداً منهم إلا أصابته ولا أصابته إلا قتلته والمعول عليه ان الطير في الحجم كالخطاطيف وأن الحجارة منها ماهو كالحمصة ودونها وفويقها وروى ابن مردويه وأبو نعيم عن أبى صالح انه مكتوب على الحجر اسم من رمى به واسم أبيه وأنه رأى ذلك عند أم هانيء ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ كورق زرع وقع فيه الاكال وهو أن يأكله الدود أو أكل حبه فبقى صفراً منه والكلام على هذا على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه أو على الاسناد المجازى والتشبيه بذلك لذهاب أرواحهم وبقاء أجسادهم أو لان الحجر بحرارته يحرق أجوافهم وذهب غير واحد الى أن المعنى كتبن أكلته الدواب وراثته والمراد كروث إلا أنه لم يذكر بهذا اللفظ لهجنته فجاء على الآداب القرآنية فشبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث ففيه اظهار تشويه حالهم وقيل المعنى كتبن تأكله الدواب وتروثه والمراد جعلهم في حكم التبن الذى لايمنع عنه الدواب أى مبتذلين ضائعين لا يلتفت اليهم أحد ولا يجمعهم ولا يدفنهم كتبن في الصحراء تفعل به الدواب ما شاءت لعدم حافظ له الا انه وضع مأكول موضع أكلته الدواب لحكاية الماضى في صورة الحال وهو كما ترى وكأنه لما أن مجيئهم لهدم الكعبة ناسب اهلاكهم بالحجارة ولما ان الذى أثار غضبهم عذرة الكنانى شبههم فيما فعل سبحانه بهم على القول الاخير بالروث أو لما ان الذى أثاره احتراقها بما حملته الريح من نار العرب على ما سمعت شبههم عز وجل فيما فعل جل شأنه بهم بعصف أكل حبه على ما أشرنا اليه أخيرا وقرأ أبو الدرداء فيما نقل ابن خالويه مأكول بفتح الهمزة اتباعا لحركة الميم وهو شاذ وهذا كما أتبعوا في قولهم محموم بفتح الحاء لحركة الميم والله تعالى أعلم

---

(١) قوله بحتمة بالضم السواد اه منه

تفسير سـورة الفيـل

وهي مكية بإجماع. وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم تُخْبَر. وقيل: أَلَمْ تَعْلَم. وقال ابن عباس: أَلَمْ تسمع؟ واللفظ استفهام، والمعنى تقرير. والخطاب للنبيّ ﷺ، ولكنه عام؛ أي ألم تَرَوْا ما فعلتُ بأصْحَابِ الفيل؛ أي قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع مِنَّتِي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟ و ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ لا بـ ﴿ألم تر كيف﴾ من معنى الاستفهام.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الفيل معروف، والجمع أفيال: وفُيول، وفِيَلَة. قال ابن السكيت: ولا تقل أفيلة. [والأنثى فِيلة[١]] وصاحبه[٢] فَيَّال. قال سيبويه: يجوز أن يكون أصل فِيل فُعْلا، فكُسِر من أجل الياء؛ كما قالوا: أبيض وبيض. وقال الأخفش: هذا لا يكون في الواحد، إنما يكون في الجمع. ورجل فِيل الرأي، أي ضعيف الرأي. والجمع أفيال. ورجل فال؛ أي ضعيف الرأي مخطىء الفِراسة. وقد فال الرأي يَفِيل فُيُولة، وفَيَّل رأيه تفييلا: أي ضعفه فهو فَيِّل الرأي.

الثالثة ـ في قصة أصحاب الفيل؛ وذلك أن ﴿ أبرهة ﴾ بنى القُلَّيس بصنعاء، وهي كنيسة لم يُرَ مِثلها في زمانها بشيء من الأرض، وكان نصرانياً، ثم كتب إلى النجاشيّ: إني قد بنيت لك أيها الملِك كنيسة لم يُبْن مثلها لملِك كان قبلك، ولست بمنتهِ حتى أصرِف إليها حج العرب

(١) من تتمة قول ابن السكيت.

(٢) في «اللسان»: «وصاحبها».

فلما تحدّثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشيّ، غضب رجل من النَّسَأة[١]، فخرج حتى أتى الكنيسة، فقعد فيها ـ أي أحدث ـ ثم خرج فلحِق بأرضه؛ فأُخْبِر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقيل: صنعه رجل من أهل هذا البيت، الذي تحج إليه العرب بمكة، لما سمِع قولك: «أصْرِف إليها حَجَّ العرب» غضب، فجاء فقعد فيها. أي أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسِيرَنّ إلى البيت حتى يهدِمه، وبعث رجلاً كان عنده إلى بني كِنانة[٢] يدعوهم إلى حجّ تلك الكنيسة؛ فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل؛ فزاد أبرهةَ ذلك غضباً وحَنَقا، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالفيل؛ وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وفَظِعوا به، ورأوا جهاده حقاً عليهم، حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيتِ الله الحرام. فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخرابه؛ فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهزِم ذو نفر وأصحابه، وأخِذ له ذو نفر فأُتِي به أسيراً؛ فلما أراد قتله قال له ذو نَفْر: أيها الملك لا تقتلني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي؛ فتركه من القتل، وحبسه عنده في وَثاق، وكان أبرهة رجلاً حليماً. ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك، يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خَثْعَمَ عرض له نُفَيل بن حبيب الخَثْعَمِيّ في قبيلتي خثعم: شَهران وناهِس، ومن تبعه من قبائل العرب؛ فقاتله فهزمه أبرهة، وأخِذ له نُفيل أسيراً؛ فأُتِي به، فلما همّ بقتله قال له نُفَيل: أيها الملك لا تقتلني، فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم: شهران وناهِس، بالسمع والطاعة؛ فخلى سبيله. وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجال من ثقيف، فقالوا له: أيها الملك، إنما نحن عبيدك؛ سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ـ يعنون اللات[٣] ـ إنما تريد البيت الذي بمكة،

---

(١) في سيرة ابن هشام: «من النسأة أحد بني فقيم بن عديّ. . . . . والنسأة: الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية، فيحلون الشهر من أشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل، ويؤخرون ذلك الشهر؛ ففيه أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾. (راجع «سيرة ابن هشام» طبع أوروبا ص ٢٩).

(٢) بنو كنانة: قبيلة ذلك الرجل الذي أحدث في الكنيسة.

(٣) في «سيرة ابن هشام»: «واللات: بيت لهم بالطائف، كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة».

نحن نبعث معك من يَدُلُّك عليه؛ فتجاوز عنهم. وبعثوا معه أبا رِغال، حتى أنزله المغمِّس[١] فلما أنزله به مات أبو رِغال هناك، فَرَجَمت قبره العرب؛ فهو القبر الذي يرجُم الناسُ بالمغمس، وفيه يقول الشاعر:

وأرجُـمُ قَبـرَه فـي كـل عـامٍ كـرجْـم النـاس قبـر أبـي رِغـال

فلما نزل أبرهة بالمغمس، بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود[٢] على خيل له، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها؛ فهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله؛ ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك. وبعث أبرهة حُناطة الحِميرِيّ إلى مكة، وقال له: سل عن سيد هذا البلد[٣] وشِريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تَعْرضوا لي بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم؛ فإن هو لم يُرِد حربي فأتني به. فلما دخل حُناطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها؛ فقيل له: عبد المطلب بن هاشم؛ فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة؛ فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، أو كما قال، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يحل بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال له حُناطة: فانطلق إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك؛ فانطلق معه عبد المطلب، ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكر؛ فسأل عن ذي نَفْر، وكان صديقاً له، حتى دخل عليه وهو في مَحْبِسه، فقال له: يا ذا نفْر، هل عندك من غَناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفْر؛ وما غَناءِ رجل أسير بيدي ملِك، ينتظر أن يقتله غُدُوًّا وعَشِياً! ما عندي غَناء في شيء مما نزل بك، إلا أنّ أُنيساً سائس الفيل صديق لي، فسأرسل إليه، وأوصِيه بك، وأُعْظِم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك، فتكلِّمَه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قَدَر على ذلك؛ فقال حسبِي. فبعث ذو نفْر إلى أنيس، فقال له:

---

(١) المغمس: موضع قرب مكة في طريق الطائف. (٢) كذا في بعض نسخ الأصل و «تفسير الثعلبي» و «تاريخ الطبري» (قسم أوّل ص ٩٣٧ طبع أوروبا). و «تاريخ ابن الأثير» (٣٢١/١ طبع أوروبا). وفي بعض الأصول: «تفسير الطبري وسيرة ابن هشام» (ص ٣٣ أوروبا): «مفصود» بالفاء بدل القاف. (٣) في هامش نسخة: «عن سيد هذا البيت».

إن عبد المطلب سيد قريش، وصاحب عَيْن مكة، ويطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاسْتَأْذنْ له عليه، وانفعه عنده بما استطعت؛ فقال: أَفْعَلُ. فكلم أُنيس أبرهة، فقال له: أيها الملك، هذا سيد قريش ببابك، يستأذن عليك، وهو صاحب عَيْن مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال؛ فأْذَنْ له عليك، فيكلمَك في حاجته. قال: فأذن له أبرهة.

وكان عبد المطلب أوسم الناس، وأعظم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أَجَلَّه، وأعظمهم عن أن يجلسه تحته؛ فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه. ثم قال لتَرجمانه: قل له: حاجَتك؟ فقال له ذلك الترجمان، فقال: حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهة لتَرجمانه: قل له لقد كنتَ أعجبتَني حين رأيتك، ثم قد زَهِدْتُ فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئتُ لهدمه؟ لا تكلمني فيه!. قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإنّ للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني! قال أنت وذاك. فردّ عليه إبله. وانصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرّز في شَعَف[1] الجبال والشِّعاب، تخوفاً عليهم مَعَرّة[2] الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلْقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُـمَّ إنَّ العَبْـدَ يَمْـ ـنعُ رَحْلَهُ فامنِعْ حِلالكْ[3]
لا يَغْلِبُـنَّ صَلِيبُهُـمْ ومِحَالُهُمْ عَدْواً[4] مِحالَكْ
إنْ يَدْخلوا البلد الحرا مَ فأمرٌ ما بَدَا لَكْ

(١) شعف الجبال: رؤوسها. (٢) المعرة الأذى. ومعرّة الجيش: أن ينزلوا بقوم فيأكلوا من زروعهم بغير علم. وقيل: وطأتهم من مروا به من مسلم أو معاهد، وإصابتهم إياهم في حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه. (٣) الحلال (بالكسر): القوم المقيمون المتجاورون. يريد بهم سكان الحرم. (٤) «عدوا» بالعين المهملة؛ ومعناه الاعتداء وفي «اللسان» مادة «غدا»: «غدوا» بالغين المعجمة. قال: «الغد أصل الغد، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذفت لامه ولم يستعمل تاماً إلا في الشعر. ولم يرد عبد المطلب الغد بعينه؛ وإنما أراد القريب من الزمان».

يقول: أي: شيء ما بدا لك، لم تكن تفعله بناء والحِلال: جمع حِلّ. والمِحال: القوّة. وقيل: إن عبد المطلب لما أخذ بحلقة باب الكعبة قال:

يا رَبِّ لا أرجُو لَهمْ سِواكا يا ربِّ فأمنعْ منهمُ حِماكا
إنّ عدوّ البيت مَنْ عاداكا إنهمُ لن يقهروا قُواكا

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي:

لا هُمَّ أخزِ الأسودَ بن مقصود الأخِذَ الهَجْمَةَ فيها التَّقْلِيدْ[١]
بين حِراءٍ وثَبِيرٍ فالبِيدْ يحبسها وهي أولات التطريدْ[٢]
فضمها إلى طَماطِمٍ سُودْ [قَدْ أَجْمَعُوا أَلاَّ يكون مَعْبُودْ[٣]
ويهدموا البيتَ الحرامَ المَعمُودْ والمَرْوَتَينِ والْمَشَاعرَ السُّود][٤]
أخفِره[٥] يا رب وأنت محمود

قال ٱبن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، ثم ٱنطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال، فتحرّزوا فيها، ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله، وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهة مجمع لهدم البيت، ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجهوا الفيل إلى مكة، أقبل نُفَيْل بن حبيب، حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأُذنه فقال له: ٱبرك محمود، وٱرجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل. وخرج نُفَيل بن حبيب يشتدّ، حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزِين[٦] ليقوم فأبى؛ فأدخلوا

---

(١) الهجمة: القطعة الضخمة من الإبل. قيل هي ما بين الثلاثين والمائة. وقيل أوّلها الأربعون. وقيل ما بين السبعين إلى المائة. (انظر كتب اللغة). وتقليدها أنه يجعل في عنقها شعاراً ليعلم أنه هدي.
(٢) حراء وثبير: جبلان بمكة. والبيد: جمع البيداء، وهي الفلاة. وتطريد الإبل: تتابعها.
(٣) السهيلي: «طماطم سود» يعني العلوج.
(٤) ما بين المربعين لم يذكره ابن إسحاق في روايته.
(٥) أخفره: أي أنقض عهده وعزمه فلا تؤمنه.
(٦) الطبر (محركة): الفأس من السلاح (معربة). والطبرزين آلة من السلاح تشبه الطبر. وقيل هو الطبر بعينه.

محاجِن[١] لهم في مراقه، فبزغوه[٢] بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يُهَرول، ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر، أمثال الخطاطيف والبَلَسان[٣]، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجر في مِنقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحِمَّص والعَدَس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك؛ وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي جاؤوا منها، ويسألون عن نفيل بن حبيب، ليدلهم على الطريق إلى اليمن. فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أَيـنَ المَفَـرُّ والإلَـهُ الطَّـالـبْ والأَشْرَمُ[٤] المغلوبُ ليسَ الغالبْ

وقال أيضاً:

حِمِـدتُ الله إذ أبصـرتُ طَيْـراً وخِفـت حِجـارَة تُلْقَـى علينـا
فكـلُّ القـومِ يسـأل عـن نُفَيـلٍ كَـأَنَّ عَلَـيَّ لِلْحُبْشـان دَيْنـاً

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلِكون [بكل مَهْلِك][٥] على كل سَهْل[٦]، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أُنْمُلَةً أنملة[٧]، كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مِدّةٌ تمث[٨] قيحاً ودماً؛ حتى قدِموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه؛ فيما يزعمون.

وقال الكلبي ومقاتل بن سليمان ـ يزيد أحدهما وينقص ـ: سبب الفيل ما رُوي أن فتْية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشيّ، فنزلوا على ساحل البحر إلى بِيعة للنصارى، تسميها النصارى الهَيْكل، فأوقدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارتحلوا؛ فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البِيعة ناراً، فاحترقت؛ فأتى الصريخ إلى النجاشي فأخبره،

(١) المحجن: العصا المنعطفة الرأس كالصولجان. (٢) بزغوه: شرطوه.
(٣) في «اللسان» و«النهاية» مادة (بلس): «قال عباد بن موسى أظنها الزرازير».
(٤) الأشرم: أبرهة؛ سمي بذلك لأنه جاءه حجر فشرم أنفه فسمي الأشرم.
(٥) زيادة عن سيرة ابن هشام. (٦) في سيرة ابن هشام: «منهل».
(٧) أي ينتثر جسمه، والأنملة طرف الأصبع. ويعبر بها عن الصغير من الأشياء.
(٨) مث السقاء: رشح.

فاستشاط غضباً. فأتاه أبرهة بن الصَّبَّاح وحُجْر بن شُرَحْبيلَ وأبو يَكْسومَ الكِنْديون؛ وضمنوا له إحراق الكعبة وسَبْي مكة. وكان النجاشيّ هو الملك، وأبرهةُ صاحب الجيش، وأبو يكسوم نديم الملك، وقيل وزير، وحُجْر بن شُرَحبيل من قوّاده. وقال مجاهد: أبو يكسوم هو أبرهة بن الصباح. فساروا ومعهم الفيل. قال الأكثرون: هو فيل واحد. وقال الضحاك: هي ثمانية فِيَلَة. ونزلوا بذي المَجاز، وٱستاقوا سَرْح مكة، وفيها إبل عبد المطلب. وأتى الراعي نذيراً، فصعد الصفا، فصاح: واصباحاه! ثم أخبر الناس بمجيء الجيش والفيل. فخرج عبد المطلب، وتوجه إلى أبرهة، وسأله في إبله. وٱختُلِف في النجاشيّ، هل كان معهم؛ فقال قوم كان معهم. وقال الأكثرون: لم يكن معهم. ونظر أهل مكة بالطير قد أقبلت من ناحية البحر؛ فقال عبد المطلب: إن هذه الطير غريبة بأرضنا، وما هي بنَجدية ولا تِهامية ولا حجازية» وإنها أشباه اليعاسيب[1]. وكان في مناقيرها وأرجلها حجارة؛ فلما أطلت[2] على القوم ألقتها عليهم، حتى هلكوا. قال عطاء بن أبي رباح: جاءت الطير عشية؛ فباتت، ثم صبحتهم بالغداة فرمتهم. وقال الكلبيّ: في مناقيرها حصًى كحصى الخَذْف[3]، أمام كل فرقة طائر يقودها، أحمر المِنقار، أسود الرأس، طويل العنق. فلما جاءت عسكر القوم وتوافت، أهالت ما في مناقيرها على من تحتها، مكتوب على كل حجر ٱسم صاحبه المقتول به. وقيل: كان على كل حجر مكتوب: من أطاع الله نجا، ومن عصاه غَوَى. ثم انصاعت[4] راجعة من حيث جاءت. وقال العَوفِيّ: سألت عنها أبا سعيد الخدرِي، فقال: حمام مكة منها. وقيل: كان يقع الحجر على بيضة[5] أحدهم فيخرقها، ويقع في دِماغه، ويخرق الفيل والدابة. ويغيب الحجر في الأرض من شدّة وقعه. وكان أصحاب الفيل ستين ألفاً، لم يرجع منهم أحد إلا أميرهم، رجع ومعه شِرذمة لطيفة. فلما أخبروا بما رأوا هلكوا. وقال الواقديّ: أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمان رسول الله ﷺ، وأبرهة هو الأشرم، سمي بذلك لأنه تفاتن[6] مع أرياط، حتى تزاحفا،

---

(١) اليعسوب: أمير النحل. (٢) في نسخة: «أقبلت». (٣) الخذف: الرمي بالحصى الصغار بأطراف الأصابع. (٤) انصاع الرجل: انفتل راجعاً ومر مسرعاً.

(٥) هي بيضة الحديد. (٦) المفاتنة: اختلاف الناس في الآراء وما يقع بينهم من القتال.

ثم ٱتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما، فمن غَلَبَ فله الأمر. فتبارزا ـ وكان أَرْياطُ جسيماً عظيماً، في يده حربة، وأبرهة قصيراً حادِراً[1]، حليماً ذا دين في النصرانية، ومع أبرهة وزير له يقال له عِتْوَدَة ـ فلما دنوا ضرب أرياط بحربته رأس أبرهة، فوقعت على جبينه، فشرمت عينه وأنفه وجبينه وشفته؛ فلذلك سُمِّي الأشرم. وحمل عِتْودة على أرياط فقتله. فاجتمعت الحبشة لأبرهة؛ فغضب النجاشيّ، وحلف لَيَجُزَّنَّ ناصية أبرهة، ويطأن بلاده. فجز أبرهة ناصيته» وملأ مِزوداً من تراب أرضه، وبعث بهما إلى النجاشيّ، وقال: إنما كان عبدَك، وأنا عبدُك، وأنا أقْوَمُ بأمر الحبشة، وقد جززت ناصيتي، وبعثت إليك بتراب أرضي، لتطأه وتبرّ في يمينك؛ فرضي عنه النجاشيّ. ثم بنى أبرهة كنيسة بصنعاء، ليصرف إليها حج العرب؛ على ما تقدّم.

الرابعة ـ قال مقاتل: كان عام الفيل قبل مولد النبيّ ﷺ بأربعين سنة. وقال الكلبي وعُبيد بن عمير: كان قبل مولد النبيّ ﷺ بثلاث وعشرين سنة. والصحيح ما روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ولدت عام الفِيل». وروي عنه أنه قال: «يومَ الفيل». حكاه الماوردِيّ في التفسير لـه. وقال في كتاب «أعلام النبوّة»: وُلِدَ رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشـر من ربيع الأوّل، وكان بعد الفيـل بخمسين يومـاً. ووافق من شهور الروم العشرين من أسباط[2]، في السنة الثانية عشرة من ملك هُرْمُز بن أنو شِروان. قال: وحكى أبو جعفر الطبـريّ أن مولد النبيّ ﷺ كان لاثنتيـن وأربعيـن سنة من ملك أنو شروان. وقد قيل: إنه عليه السلام حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرّم، وولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان؛ فكانت مدّة حمله ثمانية أشهر كَمَلا ويومين من التاسع. وقيل: إنه ولد يوم عاشوراء من شهر المحرم؛ حكاه ابن شاهين[3] أبو حفص، في فضائل يوم عاشوراء لـه. ابن العربـيّ: «قال ابن وهب عن مالك: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وقال قيس بن مَخْرمة: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل. وقد روى الناس عن مالك أنه قال:

---

(١) الحادر: المجتمع الخلق.

(٢) في نسخة: «شباط» (بالشين المعجمة كغراب)، وورد بالسين المهملة.

(٣) في بعض نسخ الأصل: «أبو شاهين حفص».

من مروءة الرجل ألاَّ يُخْبِر بسنه؛ لأنه إن كان صغيراً أستحقروه وإن كان كبيراً أستهرموه. وهذا قول ضعيف؛ لأن مالكاً لا يخبر بسنّ رسول الله ﷺ ويكتم سِنه؛ وهو من أعظم العلماء قدوةً به. فلا بأس بأن يخبر الرجل بسنه كان كبيراً أو صغيراً». وقال عبد الملك بن مروان لعتاب بن أَسِيد: أنت أكبر أم النبيّ ﷺ؟ فقال: النبيّ ﷺ أكبر مني، وأنا أسنّ منه؛ ولد النبيّ ﷺ عام الفيل، وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مُقْعدين يستطعمان الناس، وقيل لبعض القضاة: كم سنك؟ قال: سنّ عَتَّاب بن أَسِيد حين ولاه النبيّ ﷺ مكة؛ وكان سنه يومئذٍ دون العشرين.

الخامسة ـ قال علماؤنا: كانت قصة الفِيل فيما بعدُ من معجزات النبيّ ﷺ، وإن كانت قبله وقبل التحدّي؛ لأنها كانت توكيداً لأمره، وتمهيداً لشأنه. ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة، كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة؛ ولهذا قال: ﴿ألم تر﴾. ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس. وقالت عائشة رضي الله عنها مع حداثة سنها: لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس. وقال أبو صالح: رأيت في بيت أمّ هانىء بنت أبي طالب نحواً من قفيزين من تلك الحجارة، سوداً مخططة بحمرة.

[٢] ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي في إبطال وتضييع؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قُريشاً بالقتل والسبي ، والبيت بالتخريب والهدم. فحُكِي عن عبد المطلب أنه بعث أبنه عبد الله على فرس له، ينظر ما لَقُوا من تلك الطير، فإذا القوم مُشَدَّخين جميعاً، فرجع يركض فرسه، كاشفاً عن فخذه، فلما رأى ذلك أبوه قال: إن أبني هذا أفرس العرب. وما كشف عن فخذه إلا بشيراً أو نذيراً. فلما دنا من ناديهم بحيث يُسْمِعهم الصوت، قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعاً. فخرج عبد المطلب وأصحابه، فأخذوا أموالهم. وكانت

أموال بني عبد المطلب منها، وبها تكاملت رياسة عبد المطلب؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء، ثم خرج أهل مكة بعده ونهبوا. وقيل: إن عبد المطلب حفر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر، ثم قال لأبي مسعود الثقفيّ ـ وكان خليلاً لعبد المطلب ـ: اختر أيهما شئت. ثم أصاب الناس من أموالهم حتى ضاقوا ذرعاً، فقال عبد المطلب عند ذلك:

أنتَ مَنَعْتَ الحُبْشَ[1] والأفيالا ... وقد رَعَوْا بمكة الأجبالا[2]
وقد خشِينا منهمُ القتالا ... وكلَّ أمر لهم[3] مِعضَالاَ
شكراً وحمداً لك ذا الجلالا[4]

قال ابن إسحاق: ولما ردّ الله الحَبَشة عن مكة عَظَّمت العرب قريشاً، وقالوا: [هم][5] أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم مؤونة عدوّهم. وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم، في قصة أصحاب الفيل:

أنت الجليلُ ربَّنا لم تدنِس ... أنت حبستَ الفِيل بالمُغَمَّسِ
من بعد ما هَمَّ بشرٌ مُبْلِس ... حبسته في هيئة المُكَرْكَسِ
وما لهم من فرج ومنفِس

والمكركس: المنكوس المطروح.

[٣] ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ ﴾.

قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم يُرَ قبلها ولا بعدها مثلها. وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها طير بين السماء والأرض تُعَشِّشُ وتُفَرِّخ». وعن ابن عباس: كانت لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب. وقال عِكرمة: كانت طيراً خُضراً، خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع. ولم تُر قبل ذلك ولا بعده. وقالت عائشة رضي الله عنها: هي أشبه شيء بالخطاطيف. وقيل: بل كانت أشباه الوطاويط، حمراء وسوداء. وعن

(١) الظاهر أنه جمع (أحبش) بوزن أحمر، وإن لم ينطقوا به. قال في «تاج العروس»: كأنه جمع أحبش (بوزن أحمر).
(٢) في «روح المعاني»، «الأحبالا» بالحاء.
(٣) في «روح المعاني» «منهم» بدل «لهم».
(٤) كذا في نسخ الأصل وغيرها من المصادر.
(٥) زيادة عن سيرة ابن هشام.

سعيد بن جبير أيضاً: هي طير خُضْر لها مناقير صُفْر. وقيل: كانت بِيضاً. وقال محمد بن كعب: هي طير سود بحرية، في مناقيرها وأظفارها الحجارة. وقيل: إنها العنقاء المُغْرِب[١] التي تضرب بها الأمثال؛ قال عِكرمة: ﴿أبابِيل﴾ أي مجتمعة. وقيل: متتابعة، بعضها في إثر بعض؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد. وقيل مختلفة متفرّقة، تجيء من كل ناحية، من هاهنا وهاهنا؛ قاله ٱبن مسعود وٱبن زيد والأخفش. قال النحاس: وهذه الأقوال متفقة، وحقيقة المعنى: أنها جماعات عظام. يقال: فلان يؤبِّل على فلان؛ أي يعظم عليه ويكثر؛ وهو مشتق من الإبل. وٱختلف في واحد (أبابيل)؛ فقال الجوهريّ: قال الأخفش يقال: جاءت إبلك أبابيل؛ أي فِرقاً، وطير أبابيل. قال: وهذا يجيء في معنى التكثير، وهو من الجمع الذي لا واحد له. وقال بعضهم: واحده إبَّوْل، مثل عِجَّوْل. وقال بعضهم ـ وهو المبرّد ـ: إبِّيل مثل سِكِّين. قال: ولم أجد العرب تعرِف له واحداً في غير الصحاح. وقيل في واحده إبَّال. وقال رؤبة بن العجاج في الجمع:

ولعبتْ طيرٌ بِهِمْ أبابيلْ … فصُيِّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ

وقال الأعشى:

طَرِيقٌ وجَبَّارٌ[٢] رِواءٌ أُصولُهُ … علَيهِ أبابيلٌ مِن الطَّيْرِ تَنْعَبُ

وقال آخر:

كادت تُهَدُّ من الأصواتِ راحلَتِي … إذْ سالتِ الأرضُ بالجُرْدِ[٣] الأبابيلِ

وقال آخر:

تَراهُمْ إلى الداعي سِرَاعاً كأنّهُمْ … أبابيلُ طَيْر تَحْتَ دَجْنٍ مُسَخَّنِ[٤]

---

(١) هي التي أغربت في البلاد، فنأت ولم تحس ولم تر.

(٢) الجبار من النخل: ما طال وفات اليد.

(٣) الجرد (بالضم كالجريدة): خيل لا رجالة فيها. والجرد ـ أيضاً ـ: قصر شعر الجلد في الفرس، وهو من الأوصاف المحمودة في الخيل.

(٤) كذا في نسخ الأصل، (بالخاء المعجمة والنون). وفي «تفسير الثعلبي»: ... تحت دجن مسحر. (بالحاء المهملة والراء). وقد نسبه إلى ٱمرىء القيس؛ ولم نجده في ديوانه. ولعل صوابه: ... تحت دجن مسخر. (بالخاء المعجمة والراء).

قال الفرّاء: لا واحد له من لفظه. وزعم الرؤاسِيّ ـ وكان ثقة ـ أنه سمع في واحدها ﴿إبّالة﴾ مشددة. وحكى الفرّاء ﴿إبالة﴾ مخففاً. قال: سمعت بعض العرب يقول: ضِغْثٌ[١] علَى إبَّالَة. يريد: خِصباً على خِصب. قال: ولو قال قائل إيبال كان صواباً؛ مثل دينار ودنانير. وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل: الأبابيل: مأخوذ من الإبل المؤبلة؛ وهي الأقاطيع.

[٤] ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾.

في «الصحاح»: ﴿حِجارة مِن سِجيلٍ﴾ قالوا: حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم؛ لقوله تعالى: ﴿لِنرسِلَ عَلَيهِم حِجارةً مِن طِينٍ. مُسَوَّمة﴾[٢]. وقال عبد الرحمن بن أبزى: ﴿مِن سِجيلٍ﴾: من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط. وقيل من الجحيم. وهي ﴿سِجِّين﴾ ثم أبدلت اللام نوناً؛ كما قالوا في أُصَيْلان أُصيلال. قال ٱبن مقبِل:

ضَـرْبـاً تَـواصَـتْ بـه الأبطـالُ سِجِّينَـا[٣]

وإنما هو: سجِيلاً. وقال الزجاج: ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ أي مما كُتب عليهم أن يُعَذَّبوا به؛ مشتق من السجل. وقد مضى القول في سِجِّيل في ﴿هود﴾[٤] مستوفى. قال عِكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدَهم حجر منها خرج به الجُدَرِيّ لم يُر قبلَ ذلك اليوم. وكان الحجر كالحِمَّصة وفوق العدسة. وقال ٱبن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِط جلده، فكان ذلك أوّل الجُدرِيّ. وقراءة العامة ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ بالتاء، لتأنيث جماعة الطير. وقرأ الأعرج وطلحة ﴿يَرْمِيهم﴾ بالياء؛ أي يرميهم الله؛ دليله قوله تعالى: ﴿ولكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[٥] ويجوز أن يكون راجعاً إلى الطير، لخلوّها من علامات التأنيث، ولأن تأنيثها غير حقيقيّ.

---

(١) الضغث: قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس. والإبالة: الحزمة من الحطب. في «فرائد اللآل»: يضرب لمن حملك مكروهاً ثم زادك عليه.

(٢) آية ٣٣ سورة الذاريات. (٣) صدر البيت كما في «اللسان»:

ورجلـــة يضـــربـــون البيـــض عـــن عـــرض

(٤) راجع ٩/٨١. (٥) آية ١٧ سورة الأنفال.

[٥] ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾.

أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسفل. شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه. رُوي معناه عن ابن زيد وغيره. وقد مضى القول في العَصْف في سورة ﴿الرحمن﴾[١]. ومما يدل على أنه ورق الزرع قول علقمة:

تَسْقِي مَذانِبَ قدْ مالتْ عَصِيفَتُها حَدُورُها من أَتِيِّ الماءِ مَطْمُوم[٢]

وقال رؤبة بن العجاج:

ومَسَّهُمْ ما مَسَّ أصْحابَ الفِيلْ تَرْمِيهِمُ حِجَارَةٌ مِنْ سِجِّيلْ
ولَعِبتْ طَيرٌ بهمْ أبابيلْ فَصُيِّروا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ

العَصْف: جمع، واحدته عَصْفة، وعُصافة، وعَصِيفة. وأدخل الكاف في ﴿كَعَصْف﴾ للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعالى: ﴿ليس كمثلِه شيء﴾[٣]. ومعنى ﴿مأكولٍ﴾ مأكول حبه. كما يقال: فلان حسن؛ أي حسن وجهه. وقال ابن عباس: ﴿فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ﴾ أن المراد به قشر البر؛ يعني الغِلاف الذي تكون فيه حبة القمح. ويروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه، فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة. وقال ابن مسعود: لما رمت الطير بالحجارة، بعث الله ريحاً فضربت الحجارة فزادتها شدّة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجل[٤] من كِندة؛ فقال:

فإنّكِ لَوْ رأيتِ ولم تَريهِ[٥] لدى جنب المُغَمِّس ما لَقِينا

(١) راجع ١٧/١٥٦. (٢) المذانب: مسايل الماء. والعصيفة: الورق المجتمع الذي يكون فيه السنبل. وحدورها: ما انحدر منها واطمأن. والأتى (كغنى): الجدول. والمطموم: المملوء بالماء.
(٣) آية ١١ سورة الشورى. (٤) هو نقيل بن حبيب؛ كما في «تاريخ الطبري وابن الأثير».
(٥) في نسخ الأصل: «ولو ترانا» وهو تحريف؛ لأنه يخاطب امرأة. والأبيات كما أوردها الطبري (ص ٩٤٢ قسم أول طبع أوروبا) وابن الأثير (١/ ٣٢٢ طبع أوروبا):

ألا حييت عنا يا ردينا نعمناكم مع الإصباح عينا
أتانا قابس منكم عشاء فلم يقدر لقابسكم لدينا
ردينة لو رأيت ولم تريه لدى جنب المحصب ما رأينا
إذن لعذرتني وحمدت رأيي ولم تأسى على ما فات بينا
حمدت الله إذا عاينت طيراً وخفت حجارة تلقى علينا
لكل القوم يسأل عن نفيل كأن عليّ للحبشان دينا

خَشِيتُ اللَّهَ إذْ قد بَث طَيْراً وظِلَّ سحابةٍ مَرت عَلَينَا
وباتتْ كلُّها تدعو بِحَقٌ كأن لها على الحُبْشان دَيْنَا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم. وقد تقدّم أن أميرهم رجع وشِرْذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا. فالله أعلم. وقال ٱبن إسحاق: لما ردّ الله الحبشة عن مكة، عَظَّمت العرب قريشاً وقالوا: أَهلُ اللَّهِ، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوّهم؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم.